

في الاجتماع اللغوي

اللهجات العامية الحديثة

ضيق متنها وقلة مترادفاتها

للدكتور علي عبد الواحد وافي

أستاذ الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

- ٤ -

— — —

اللهجات العامية الحديثة المنشعبة عنها . فتون هذه اللهجات ضيقة كل الضيق لا تكاد تشتمل على أكثر من الكلمات للضرورة للحديث العادي ، وتكاد تكون مجردة من المترادفات ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك في إحدى مقالاتنا السابقة^(١)

وقد كان هذا أحد الأسباب التي حلت بمض الباحثين على أن يقف حيال مفردات اللغة العربية موقف الشك الذي وقفه آخرون حيال قواعدها^(٢) . فزعم أنه لا يبعد أن يكون جامعو اللماجم قد خلقوا كثيراً من هذه المفردات خلقاً لحاجات في نفوسهم

وقساد هذا الرأي لا يكاد يحتاج إلى بيان فلهجات المحادثة في جميع الأمم تقتصر في العادة على الضروري وتنفر من الكمال ، وتناهى عن مظاهر الترف في المترادفات وما إلى ذلك . وإليك تنوع دائماً هوة الخلاف بينها وبين اللغة الفصحى في هذه الناحية فليست العربية فذة في هذا الباب ، بل تشترك معها فيه جميع «لغات الآداب» أو «اللغات الفصحى» وإليك مثلاً اللغة الفرنسية الفصحى ، أو لغة الكتابة ، واللغة الفرنسية المستحدثة في التخاطب العادي ، فالفرق بينهما في المفردات لا يكاد يقل عن الفرق بين العربية الفصحى واللهجات العامية الحديثة المتفرعة منها

أما جامعو اللماجم فيدلنا التاريخ وتدلنا آثارهم على شدة حرصهم على تحري الحق . فقد استخلصوا معظم ما اشتملت عليه معاجمهم من كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومن أحاديث الرسول عليه السلام ، والآثار العربية في العصر الجاهلي والمصور الإسلامية الأولى ، واستخلصوا بعضه من العرب المعاصرين لهم . وكانوا شديدي الحيلة في هذه الناحية إلى حد الإفراط . فكانوا يتحاشون الأخذ عن تشوب عربيتهم أية شائبة . ولذلك كانوا لا يكادون يأخذون إلا من غريب اللهاية لفصاحة أسنتهم ، ويُبند لهجاتهم عن التأثير باللغات الأجنبية ، وغزلتهم وقلة احتكاكهم بغيرهم . فكانوا يترقبون مجيء أعراب البادية إلى المدن في التجارة أو غيرها ...

من أهم ما يمتاز به العربية أنها أوسع أخواتها السامية ثروة في أصول الكلمات والمفردات . فهي تشتمل على جميع الأصول التي تشتمل عليها أخواتها السامية أو على معظمها ، وتزيد عنها بأصول كثيرة احتفظت بها من اللسان السامي الأول ، ولا يوجد لها نظير في أية أخت من أخواتها . هذا إلى أنه قد يجمع فيها من المفردات في مختلف أنواع الكلمة إسما وفعلها وحرفها ، ومن المترادفات في الأسماء والصفات والأفعال ... ما لم يجمع مثله لغة سامية أخرى ، بل ما يندر وجود مثله في لغة من لغات العالم . فقد جمع للأسد خمسمائة اسم ، ولثعبان مائتا اسم ؛ وكتب الفيروزآبادي صاحب القاموس المحيط كتاب في أسماء العسل ؛ فذكر له أكثر من ثمانين إسماً ، وقرر مع ذلك أنه لم يستوعبها جميعاً . ويرى الفيروزآبادي أنه يوجد لسيف في العربية ألف اسم على الأقل ؛ ويقرر آخرون أنه يوجد أكثر من أربعمائة اسم للدهاية ؛ ويوجد لكل من الطر والريح والنور والظلام والفتاة والحجر والماء واللبث أسماء كثيرة تبلغ عشرين في بعضها وتصل إلى ثلثائة في بعضها الآخر . وقد جمع الأستاذ دو هامر De Hammer المفردات العربية للتصلة بالجل وشثونه ، فوصلت إلى أكثر من خمسة آلاف وستمائة وأربعة وأربعين^(٣) . وكذلك الشأن في الأوصاف : فلكل من الطويل والقصير والكريم والبخيل والشجاع والحياب ... في اللغة العربية عشرات من الألفاظ

وفي ذلك تختلف العربية للفصحى اختلافاً كبيراً عن

(١) أنظر منذ ٤١١ ص ٦٧٣

(٢) أنظر منذ ٤١٣ ص ٧٢٤ وتوابها

أعترف عن أوضاع اللغة الفصحى . ولتلك لم يأخذوا إلا من
عرب الجاهلية والإسلام إلى أواسط القرن الثاني الهجري
بالنسبة إلى فصحاء الأحضار ، وإلى أوائل الرابع بالنسبة إلى
فصحاء البادية ؛ وسموا هذه المصور « مصور الاحتجاج » .
وأهملوا ما عداها مبالغة في الدقة وحرصاً على تجري وجوه
الصدق واليقين .

أما الأسباب الحقيقية لكثرة المفردات والمتراذفات إلى الحد
الذي وصفناه فيرجع أهمها إلى الأمور الآتية :

١ - أن طول احتكاك لغة قريش باللغات اللربية الأخرى
قد نقل إليها طائفة كبيرة من مفردات هذه اللغات . ولم تقف
لغة قريش في اقتباسها هذا عند الأمور التي كانت تموزها ،
بل انتقل إليها كذلك من هذه اللغات كثير من المفردات
والمصيغ التي لم تكن في حاجة إليها لوجود نظائرها في متنها
الأصلي ؛ ففازت من جراء ذلك مفرداتها وكثرت فيها المتراذفات
في الأسماء والأوصاف والمصيغ ، وأصبحت الحالة التي انتهت إليها
أشبه شيء ببحيرة امتزج بمياهها الأصلية مياه أخرى انحدرت
إليها من جداول كثيرة . وإلى هذا يشير ابن جني في كتابه
الخصائص إذ يقول : « وكما كثرت الألفاظ على المعنى الواحد
كان ذلك أولى بأن يكون لغات الجماعات اجتمعت لإنسان واحد
من هنا وهناك » ، ويشير إليه كذلك ابن فارس في كتابه
الصاحبي إذ يقول : « فكانت وقود العرب من حجاجها وغيرهم
يفدون إلى مكة للحج ويتعاقبون إلى قريش مع فصاحتها وحسن
لغاتها ورقة ألسنتها ؛ فإذا أتتهم الوفود من العرب يتخبرون من
كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفي كلامهم ، فاجتمع
ما تخبروا من تلك اللغات إلى سلاتتهم التي طبعوا عليها ^(١) » .

٢ - إن جامعي اللماجم لم يأخذوا عن قريش وحدها ، بل
أخذوا كذلك عن قبائل أخرى كثيرة ؛ ومن المقرر أن لغات
المحادثة كانت تختلف في بعض مظاهر المفردات باختلاف القبائل
حتى بعد تظلم لغة قريش على سائر ألسنة العرب . وكان من جراء
ذلك أن اشتملت اللماجم على مفردات لم تكن مستخدمة في لغة

فيستعملون إلى حديثهم ويناقشونهم في مختلف شؤون اللغة ،
ويدونون من فورهم كل ما يهدهم إليه هذا الحديث وترشدهم
إليه هذه المناقشة بصدد مفردات اللغة ودلالاتها ووجوه
استخدامها . وكانوا يتبنون أحياناً ما يسميه علماء اللغة بطريقة
« الملاحظة السلبية » Observation passive ، فيرحلون إلى
البادية ويقضون فيها بين ظهري الأعراب الأشهر بل السنين ،
يشارونهم ويستمعون إليهم في أحاديثهم الطبيعية ، ويدونون
ما يقعون عليه في هذا السبيل ، وفي ذلك يقول أبو نصر الفارابي
في كتابه : « الألفاظ والحروف » : « والذين منهم نقلت اللغة
اللربية من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد ، ثم هذيل
وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر
قبائلهم . وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا من ظلم
وجندام لجاورتهم أهل مصر والقطب ، ولا من قضاة وغسان
وإباد لجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى بقرعون العبرية ،
ولا من تغلب لجاورتهم للروم ، ولا من بكر لجاورتهم للقطب ^(٢)
والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين
مخالطين لأهل فارس والهند ، ولا من أهل اليمن لمخالطهم لأهل
الحبشة والهند ، ولا من بني حنيفة وسكان البمامة وثقيف وأهل
الطائف لمخالطهم تجار اليمن من المعنبيين وغيرهم وقربهم من
الجاليات اليمنية ، ولا من حواضر الحجاز لأن السنة أهملها كانت
قد فصلت حينئذ لامتزاجهم بأهم كثيرة ^(٣) ، ويقول ابن خلدون
« وكانت لغة قريش أفصح اللغات وأحرصها لبعدها عن بلاد
العجم من جميع جهاتها ، ثم من اكتشفهم من ثقيف وهذيل
وخزامة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وبني تميم . فأما من بعد
عنهم من ربيعة وثلج وجندام وغسان وإباد وقضاة وعرب اليمن
المجاورين لأهل الفرس والروم والحبشة فلم تكن لغتهم تامة اللسنة
لمخالطة الأتاجم . وعلى نسبة بدمهم من قريش كان الاحتجاج
بلسانهم في الصحة والتمسك عند أهل الصناعة اللربية ^(٤) »

وما اتخذوه من وسائل الحيلة حيال اللقبائل والأمكنة
اتخذوه حيال الأزمنة والمصور . فلم يأخذوا إلا عن المصور
التي كان فيها اللسان اللربي سليماً لم يصبه بعد تبلبل أجمي ولا

(١) غير أن هذه العبارة تشر أن الانتقال الذي نحن بصدده كان
يحدث دائماً من قصد ، والحق أنه يحدث في الغالب في صورة تلقائية من
غير قصد للتكلمين .

(٢) في الأصل « القبط » وصوابه « القبط » كما لا يخفى
(٣) للزهر السمرطلي جزء أول من ١٠٤ بتلخيص وتصرف في العبارة
(٤) مقدمة ابن خلدون من ٦٣٥

هذا ، ومع ما كان يتخذونه جامعا للمعاجم من وسائل الحيلة والحرص على تجمي الصواب ، فقد اندس في معاجمهم كثير من المفردات المولدة والشكوك في عريتها ، وحرقت فيها كلمات كثيرة عن أوضاعها الصحيحة . ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة أهمها سيان :

(أحدهما) أن بعض الأضمار التي أخذوا عنها قد ثبتت فيما بعد أنها موضوعة . فلا يعد أن يكون بعض مفرداتها من اختراع الواضمين

(وثانيهما) أنهم كانوا أحيانا يأخذون عن الكتب والمصحف . فحدث من جراء ذلك تحريف في كثير من الكلمات التي نقلوها . لأن الرسم في عصورهم كان مجرداً من الإجماع والشكل . فكان من الممكن أحيانا قراءة للكلمة الواحدة على عدة وجوه .

هو عبد الواحد رافق

ليسانيه ودكتور في الآداب من جامعة السربون

قرئش ويوجد لمعظمها مترادفات في متن هذه القنة الأصل وفيها انتقل إليها من غيرها ، فزاد هذا من نطاق المفردات والمترادفات في المعاجم سعة على سعة

٣ - إن جامعي المعاجم ، لشدة حرصهم على تقييد كل شيء دونوا كلمات كثيرة كانت سهجورة في الاستعمال ومستقبلاً بها مفردات أخرى . فكثرت من جراء ذلك في المعاجم مفردات اللفظة ومترادفاتها

٤ - إن كثيراً من الكلمات التي تذكرها للمعاجم على أنها مرادفة في معانيها لكلمات أخرى غير موضوعة في الأصل لهذه المعاني ، بل مستخدمة فيها استخداماً مجازياً^(١)

٥ - إن الأسماء الكثيرة التي يذكرونها للشئ الواحد ليست جميعها في الواقع أسماء ، بل معظمها صفات مستخدمة استخدام الأسماء . فكثير من الأسماء المترادفة كانت في الأصل نموتاً لأحوال المضمي الواحد ، ثم نفوسيت هذه الأحوال بالتدرج وتجردت مدلولات هذه النموت مما كان بينها من فوارق وغلبت عليها الأسمية . فالخطار والحطام والباسل والأصيد ... من أسماء الأسد يدل كل منها في الأصل على وصف خاص مغاير لما يدل عليه الآخر ، وكذلك ما يمد من أسماء السيف : كالصم والمهندى والحسام والمضب والقاطع ... وهم جرا

٦ - إن كثيراً من الألفاظ التي تبدو مترادفة هي في الواقع غير مترادفة ، بل يدل كل منها على حالة خاصة تختلف بعض الاختلاف من الحالة التي يدل عليها غيره ؛ وإليك مثلاً : رمق ولحظ ولمح وحديج وشفن ورنأ ... وما إلى ذلك من الألفاظ التي تدل على النظر ؛ فإن كل منها يعبّر عن حالة خاصة للنظر تختلف عن الحالات التي تدل عليها الألفاظ الأخرى . فرمق يدل على النظر بجماع العين ؛ ولحظ عن النظر من جانب الأذن ؛ وحديج معناه رماء ببصره مع حدة ؛ وشفن يدل على نظر للمتعب أو الكاره ؛ ورنأ بيقيد إدامة النظر في سكون ... وهم جرا^(٢)

(١) اختلط في كثير من المعاجم اللسان الخفية باللسان المجازية ، ولم يميزها إلا بعض المعاجم كالأساس للزعمري ولد كتب الزعمري كتاباً خاصاً سماه « المجاز » ، وبين فيه ما تجوزت به العرب من الألفاظ وما تجوزت به من الدلالات . أنظر مقدمة ابن خلدون صفحة ٦٢٩

(٢) انظر الخفص لابن سيده ، وفقه القنة لثعالي تجد فيها آلافاً من الأمثلة بهذا الصدد .

محمد سعيد العريان

يقدم

العقيد الفريد

تأليف

الفقيه أحمد بن محمد بن عبد البر بن عبد الله الأندلسي

طبعة كاملة مطبوعة ، روجت على مصادرها الأولى ، في ثمانية أجزاء ، كل جزء منها ٤٠٠ صفحة
والجزء الثامن منها فهارس كاملة مطبوعة ، للاعلام ، والبهان ، والقبائل ، والأماكن ، والجماعات ، والقوالي ، وأنصاف الآيات
ومن النسخة كاملة ١٠٠ قرش صاغ ، وأجرة البريد ١٠ قروش في الداخل ، و ٣٠ قرشاً في الخارج .
وتطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد علي بصرة لصاحبها مصطفى محمد - والمكتبات العميرة .